دراسات الأدب المعاصر، السنة الخامسة، صيف ۱۳۹۲، العدد الثامن عشر، صص ۸۱- ۹۵

دراسة فی أصداء النيل

حسين محمديان *

تاريخ الوصول: ۹۱/۱۱/۱۸
تاريخ القبول: ۹۲/۱/۱۵

الملخص

ما زالت العرب تذكر النيل وما يزال فی أشعارهم قديماً وحديثاً فلا يكاد يخلـو منـه ديـوان شعر من دواوين شعراء مصر والسودان. وفتن عقول الشعراء فنشدوا فيه روائع شعرية، تتسم برقة الديباجة وسلامة الأسلوب وجزالة اللفظ وشرف المعنى.فمنهم الشعراء من أحبوا النيل حبا جماً كالشاعر *عبدالله الطيب المجذوب* الذی سمی ديوانه «أصداء النيل». النيل عنده يخرج من دائرة الحس والمادة إلى دائرة المعنى، فهو رمز لقوة الإرادة وإنّ مجـد النيـل هـو مجد الوطن، ومن ثم التغنی بحب النيل هو غناء بحب النيل، إذ يجد الشاعر عنده الطمأنينة والسكينة بسبب علاقة حميمة تربط بينهما منذ الطفولة البـاكرة، وإنّ الصـلة بينهمـا هـی صلة «الحب الفطری» ومن ثَمَّ كان الحنين إلى النيل حنيناً إلى الإنسان والزمان والمكـان، فتعلقت روحه بالنيل وأهله، فلا يكاد يستطيع مفارقته. لذلک يتحدث عن النيل فی ديوانـه مرّات؛ بل وسمی تسعاً من قصائده ومقطوعاته الشعرية بأسماء النيل.

الكلمات الدليلية: النيل، أصداء النيل، عبدالله الطيب، الحنين، حب النيل.

* طالب الدكتوراه بجامعة الحكيم السبزواری.

المقدمة

يهدف هذا البحث إلى إعطاء صورة واضحة وخلفية موجزة عن حقيقة النيل وطبيعته وأثره فى حياة الشاعر *عبدالله الطيب*، وتأثره به ومكانته فى نفسه عبر «أصداء النيل» فقد كان النيل وما يزال ملهم الأدباء والفنانين، ومبعث الشعر والأدب ومبرز معانى العزة والكرامة والشوق والحنين ومبادئ الحرية ورفض الخضوع على مر العصور والأزمان. فالنيل هوالحب الأزلى، وهو الماضى، والحاضر، والمستقبل، والرجاء، والوفاء، والشموخ والعزة، والوقار، والعظمة عند كثير من الشعراء والأدباء.

الشعر من أقدم آليات التعبير الفنى وأقواها التفاتا إلى الطبيعة، واهتماما بتصوير ظاهرها وسحرها وروعتها. كما ينفعل الإنسان بالمواقف المتعلقة بحياة الفرد أو الجماعة كذلك تجذبه الظواهر الطبيعية، تثير فى نفسه مشاعر شتى. النيل هو أساس لهذه الطبيعة، فهو سفر وطنى مقدس تقرأ فى صفاته عقول الناشئة ماضى أجدادها التليد، وتستلهم من عمقه وسكوته ولطفه ووقاره القوة والحكمة؛ ومن ثم أخذت ألسنة الشعراء ترد منهله، وتتهافت عليه كما يتهافت الفراش على الرحيق تعبّ منه تلك المعانى السامية وتنهل من فيضه الزاخر، وتستوحى من ماضيه تاريخ أمتها المشرقة فلم يخل ديوان من دواوين أبناء النيل من ذكره، والإشارة إليه، والتغنى بفضله العميم، وخيره الدفاق(طالبى، ١٣٧٦ش: ١٢٣).

قد أثر هؤلاء الشعراء الساحة الأدبية وغامته الشعرية بروائع لاتحصى ولايسع المجال للوقوف عندها جمعاء، ولا للوقوف عند الشعراء أجمعين. بل ونكتفى بلمحة عابرة من قصائد *عبدالله الطيب المجذوب* فى ديوانه «أصداء النيل».

النيل لغة

قيل أنه كان معروفا باسم «حابى»(إله النهر) وربما كان اليونانيون هم أول من استخدم اسم نيلوس Neilos كما قيل إن النيل مأخوذ من اللغة الفارسية، وهى «نيل» أى الأزرق وهناک رأى آخر وهو اسم النيل منحدر من لفظ "أيال" القبطى بعد إضافة المقطع "نى" كأداة تعريف للجمع فى اللغة القبطية وقد أضاف اليونانيون إليها المقطع (OS) لتصبح نيالوس، ثم حذفت بعد ذلک فى استخدام الوس. وما من شک أن هذا الرأى الأخير هو الأقرب إلى الصواب(الشامى، ١٩١٧م: ١٧).

یقول *ابن منظور* فی «لسان العرب» إن *الأصمعی* قال: «نالة الحرم ساحتها وباحتها النیل نهر مصر حماها الله وصانها» وفی الصحاح «فیض مصر، ونیل نهر بالکوفة» وحکی *الأزهری* و قال: «رأیت فی سواد الکوفة قریة یقال لها النیل...»(ابن منظور، ج۱۴: مادة نیل) أما *الزبیدی* فیقول فی «تاج العروس»:

فقد رمیت بداء لستَ غاسله ما جاوز النِّیل یوماً أهل أبلیلا

قریة بالکوفة، قال *النعمان بن المنذر* یجیب *الربیع بن زیاد العبسی*: «والنیل قریة ب«یزد» علی مرحلتین منها: النیل نبات «العظلم» وأیضاً نبات آخر ذو ساق صلب وورق صغار؛ أما النیل بالکسر فهو السحاب(الزبیدی، ۱۳۰۶ق، ج۸: مادة نیل).

حیاة الشاعر

ولد فی السودان غربی «الدامر» فی سنة ۱۹۲۱م، تعلم بمدرسة کسلا و الدامر و بربر وکلیة غوردن بالخرطوم، والمدارس العلیا ومعهد التربیة ببخت الرضا وجامعة لندن بکلیة التربیة، ومعهد الدراسات الشرقیة والإفریقیة، نال الدکتوراه من جامعة لندنSOAS سنة ۱۹۵۰م، عمل بالتدریس بأم الدُرمان الأهلیة وکلیة غوردن وبخت الرضا وکلیة الخرطوم الجامعیة وجامعة الخرطوم وغیرها من الجامعات.

تولی عمادة کلیة الآداب بجامعة الخرطوم(۱۹۶۱-۱۹۷۴م) کان مدیراً لجامعة الخرطوم وأول مدیر بجامعة جوبا، عمل أستاذا للعربیة بالمغرب فی کلیة الآداب بجامعة محمد بن *عبدالله بفاس*. له عدة مؤلفات منها «المرشد إلی فهم أشعار العرب وصناعتها» و «الأحاجی السودانیة» و«نافذ القطار» و... له عدة دواوین شعریة مثل«أصداء النیل» و«زواج السمر» و«أغانی الأصیل» و«یانات رامة».

عضو عامل بمجمع اللغة العربیة بالقاهرة منذ ۱۹۶۱م، وعین رئیسا لمجمع اللغة العربیة بجمهوریة السودان فی ۱۹۹۰م وفی بدء تأسیسه، منح الدکتوراه الفخری فی اللغة العربیة من جامعة الخرطوم وجامعة بایبر وبکنو بنیجریا ومن جامعة الجزیرة بالسودان. شارک فی عدة مؤتمرات فی السودان وخارجها وله مساهمة فی الصحافة والإذاعة والتلفزیون. فسر القرآن کله من إذاعة أُم دُرمان ونشر تفسیر جزء عم وتفسیر جزء تبارک(الطیب، ۱۹۹۱، ج۳: ۱۸۴).

أصداء النّيل والنّيل

يحتوى ديوان *عبدالله الطيب* «أصداء النيل» على ١٦٠ قصيدة ومقطوعة وهزجا ومسمطا وقصة، وتدور موضوعاتها حول شعر الحب والجمال والوصف والمدح والرثاء والموضوعات القومية وفى ديوانه قصائد نظمها فى الطبيعة وحبه لمظاهر الطبيعة، يبدو بكل وضوح وكانت الطبيعة فى شعره مجالاً لتأملاته الشعرية.

يتجلى حب *عبدالله الطيب* لمظاهر الطبيعة فى مادة الخيال التى يعبر بها عن خلجات نفسه ومعانيه. فهو كثيراً ما يتخذ من الأزهار والأنهار والغابات والصحارى والألحان والأنوار وغير ذلک من محاسن الطبيعة مادة لخياله. فعشق النيل لأنه صوت السودان، فيلوذ الشاعر بالنيل، ذلک النيل الذى كم عشقه، وتدله فى حبه فيلتجئ إليه، ويكشف ويكثر من ترديد هذه الكلمة النيل فى شعره.

كما سمى تسعاً من قصائده ومقطوعاته فى «أصداء النّيل» بهذه العناوين: ذكرى النيل، ماء النيل، حبذا النيل، النيل، أوز النيل، إلى النيل، حنين إلى النيل، روض النيل، صورة أخرى لروض النيل .كما يتكلم عن النيل فى القصائد التالية: الصابر، الربيع، الشتاء، زنجية جنوبية، ألا حبذا نهر، رنا قلبى، إنجيلک شعر الثورة المصرية، ذكرى، رسم الحادثات، ندم الشباب، البدر فى مانشستر، السدود، المركب النهرى، النيم، بخت الرضا، النخلة، يا سدرة بالتل، سفر الصداقة، خواطر مفيدة، أمس زرنا أم الدجاج، الدب والدولار، بدامر الصدق، الربع المحيل، إلى الخرطوم، شكوى وعزاء، يا جارة البين غربة وذكرى، الوطن الضائع، وداع الخرطوم، هموم وفلسطين، ذكرى حافظ، صخر أسوان.

حبّ النّيل

إن التعبير عن حب النيل والتعلق به قد يتخذ أسلوب الصراحة والوضوح بالتعبير المباشر بلفظ الحب، وذلک تأكيد معنى المحبة، وغرسه فى النفوس، والفخر بترديده، والاعتزاز بالتغنى به؛ ولذلک نجد الشعراء يرددونه ويكررونه فى أكثر من موضع «أحب النيل ذا التيار... »، «أحب النيل زمجر...»، «أحب النيل حين صفا...»، «يا حبَّذا النيل إذ رف الأصيل...»، «يا حبَّذا النيل أنى كان منسربا...»، «وحبَّذا وقفة النيل...»، «وحبَّذا شطآه والنخيل...».

والمتصفح لأصداء النيل، يرى فى النظرة الأولى مدى تعلق *عبدالله الطيب* وحبه بالنيل؛ وفى رأيى إن الشعر جدير بالنظر والتقدير فى ديوانه إنما يتجه إلى التغنى بنغمات الحب فى مظاهره المختلفة خاصاً فى الطبيعة .تطور حب *عبدالله الطيب* من حب ضيق إلى حب أفسح، وكان يحب صوراً أخرى من الجمال ووصف النيل وأعجب به عندما أنشد قصيدته «إلى الخرطوم» ومطلعها هى:

إلى الخُرطُوم من بعد إغتِرَابِ وبعد بِلَى الشَهِى من الشباب

(الطيب، ١٩٩٢: ١٩٩)

فالنيل دار له هيبة النسك ووقاره، تجد النفس عندها المتعة الروحية وتسبح فى جماله وحسنه، تعشقه وتحبه فيقول الشاعر فى القصيدة نفسها:

أحِبّ النيلَ حِينَ صَفَا وشَعَّتْ تَهاوِيلُ الأصيلِ عَلَى الرِّوَابِى

هُبُّ النِّيلَ به الرِيحُ الشمَالِ عَلَى شِرَاع كَسَالِفةِ الأوَزةِ ذِى انسِياب

وَلَولاَ النيلُ والذكرى وصبرِى وأنّى للْمَكاره ذو غِلاَب

أحبُّ النيلَ ذَا التّيارِ يطفُو ويلطُمُ جَانِبيهِ بِالعِبَاب

أحبُّ النيلَ زَمجَرَ ثُمَّ لَجَّت سَوَاقِيه الشَّجِيةِ فى انتحَاب

سَمِعتُ بكاءَها والعُمرُ غَضٌّ يعَللنى بآمال عِذاب

وعَزَّائى تَنَهُدُّهَا مُطيفَا بِهِ سَجعُ القمَارى الطّراب

(الطيب، ١٩٩٢: ٢٠٠)

إنه النِّيل وقد خلبت مناظره الجذابة البهية، لبَّ الشاعر وملكت عليه أحاسيسه وهو يتأمله وقت الأصيل، وريح الشمال تداعب موجه ودفاعه، حيثما تتهادى فوقه الزوارق الشراعية وهو يموج كريش الأوزة نعمة وبطئاً، إنه النِّيل تحن إليه النفوس لتجد فيه المسرة والجمال الفطرى(الطيب، ١٩٩٢: ٢٠١).

إنها صورة شعرية تنبض بالحياة والحركة مفعمة بالحب الخالص للنيل الخالد، وهى غناء صداح بجماله، ذلك الجمال الذى تعشّقته النفس منذ رقة أناملها، وهى تطرب لسماع أصوات سواقيه الشجية وصدح قماريه حيث أزفلة من الفتيات الحسناوات فى أثوابهن الغبراء قد دلفن يحتطبن من شاطئيه فى طمأنينة وأمان، يتمتعن بحسنه وجماله فهو كَم جميل رائع عند الأصيل:

يا حَبّذَا النّيلُ إذا رَفَّ الأصيلُ وإذا مَاء السَّوَاقى عَلَى الرَّوضَات سَكَّاب
وَفتيةٌ قَد تَلَوا يسَ فِى سَحَرِ وَغَيرُهُم فِى حَشَايا اللَّيلِ مَا ثابوا

(الطيب، ١٩٩٢: ١٨٢)

فالقلب مولع بحب النيل ويتشوق للتمتع بحسنه الجذّاب وإحساس الشاعر هنا إحساس صادق تحت ظلّ الحنين والغربة، كما تثير الحب والحماس الروحى فى النفوس واصفاً فى تعابير رقيقه ومعان دقيقة حنانه واشتياقه برؤية النيل فى الصيف، فيقول فى مقطوعته إلى النيل حيث ينشد:

أُحِبُّ النيلَ فى الصَّيفِ وقَدْ زَمْجَرَ واهتاجا
ومَشْتَى لَنْدنَ البارِدَ والمَوْقِدَ وهَّاجا
ولَيلَ السَّمَرِ الآن لا تَرْهُبُ إحراجا
ومَسَّ الأَذْمُلِ الغى من إشراقها تاجا
وبَشَّ الزهْرُ يحكيهنَّ إذْ أقْبَلْنَ أفواجا
همى دَمْعُ امرئٌ القيس على الأطلال إذ عاجا

(الطيب، ١٩٩٢: ٩٢)

أولع *عبدالله الطيب* بالصور المشرقة فى شعره فعشق النّيل عشق النور والإشراق. يصف الشاعر النيل فى مقطوعته «ألا حبّذا النهر» إذ يصف فيها الظواهر الطبيعية التى تنبض بالحياة، ويصور لنا التصاوير الحية كلوحة قلمية رائعة، ولذلك لاينقلها نقلا محضا، بل ينقل من أحساسيسه وشعوره، ولاتدخل فى باب الغموض فى وصفه ويقف بجانب النِّيل ويتغنى بسحره لكى يزيد سحراً على سحر، فيقول:

ألا حبَّذا نَهْرٌ تكاد غِياضُه لِمَا أشْرَفُتْ من جانبيهُ تَلاحُم
تَوَثَّبُ فيه كُلُّ ذاتِ مسافَةٍ من الحسن فيها أنْجُدٌ وتهائم
تراهُنَّ فيه سابحاتٍ وقد حَنَا عليهِنَّ صَدْرٌ منه رَّيانُ رائم
وهيهات منك النيلُ طامحٌ يجيشُ، به التمساحُ أسْحَمُ ساهم
وسمراء عند النيل جاذَب خطوها تكسّرُها فى مَشيها والنسائم

(الطيب، ١٩٩٢: ٥٤و٥٥)

فيقول فى مقطوعة أخرى باسم النيل حيث ينشد:

ألا يـــا حَبَّـــذا النيـــلُ ال خصِـيبُ العـيش مـن نهـر
وذاك السُّـــــنْبُلُ الـــــراعِ ش فيـــه نَفَـــسُ الفجـــر
ونَطْـــــــوِى شُـــــــقَّةَ مَسُـــــوقين ولا نـــــدرى

يستمر *عبدالله الطيب* فى تصوير معالم تلك الحياة الوادعـة علـى شـاطئ النيـل، ويصـور جمال طبيعته، وقد انسكبت مياه السواقى دفاقة فى الرياض الغناء، ثم يدلف لتصـوير الحيـاة الروحية لساكنيه، فهؤلاء صبية يتلون آى الذكر الحكيم بالأسحار، وأولئـک فارقـت جنـوبهم المضاجع فى حنايا الليل يتجهدون، وهم يعيشون فى كنف النِّيل، ويتمتعون بجماله الأخاذ:

يا حَبّذَا النيـل أنَّـى كَـانَ مُنسَـربا وحَبَّـــذا ثَـــبجٌ منـــهُ وكُثبَـــان
وحَبَّـذَا شَـاطِئاهِ والنَّخِيـلُ ونيـرَانُ القُـــرَى ومَعِيـــزُ الحـــى والضَّـــانُ
وحبَّـذا وَقفَـة بالنيـل إذ دَلكَـت بَعـدَ المَقِيـل ورام الـرى رُعيـان
الـوارِداتُ ضِـفافِ النيـلِ أزفِلَـةً يرحَضْـنَ ثُـمَّ مـا يرحَضْـنَ خُلقَـان
والنيلُ يهجِسُ فى أعمَـاقِ أنفُسِـنَا مُذ نَحنُ فى سَبَحاتِ المَهدِ وِلْـدَان

(الطيب، ١٩٩٢: ٢٤٢و ٢٤٣)

فتشب النفوس وهى تحسن فى أعماقها بهذه المعانى السامية التى تتوطد مع مـر الزمـان وترسخ فى القلوب التى تعلقت بحب النيل وتشربت منه الجلال والمهابة والاعتزاز بالذات منذ سبحات المهد .وقد أجاد الشاعر فى إبراز هذا المعنى وتصويره، فقوله هذا هـو تعبيـر يجمـع بين عاطفتى الحب والبراءة؛ فالهجس من الأعماق وبث اللواعج والهواجس هى مزية من مزايا العشاق والمحبين الذين أضناهم الجوى، وقـرح أكبـادهم الهـوى، وناوشـتهم لـواعج الوجـد والحب. وما همسات النفس وهواجسها إلاَّ صدى لذلک، وإفصاح جهير بمكنوناتها، وبما يعتلج فيها، فالنيل يهجس فى أعماق النفوس وهو يفـيض عليهـا تحنانـا ومحبـة كهـوى العشـاق والوالهين.

أما قوله فى "سبحات المهد والدان" فهو إفصاح عن عاطفة البراءة والعفاف الفطـرى، لأن الطفولة تعنى التجريد إلاّ من الفطرة الأولى التى لم يشبها شائب ولم يدنسها دنس، فالطفولة هى رمز النقاء وصفاء السريرة، فولدان المهد براءتهم هى قـبس مـن نـور الإلـه، يشـع صـفاء وإشراقا. ولما كانت عاطفة الحب تتأرجح بين التوهج والخمود، والتوقد والـذبول، فإنَّهـا ترمـز إلى الحياة البشرية التى لا تقف على حال ولا تسـتقر علـى نهـج واحـد، بـل تتقلـب توهجـا

وخمودا، يسرا وعسرا، فعاطفة الحب هى رمز لها، أما براءة الطفولة، فهى رمـز الفطـرة الأولـى، تلك الفطرة السوية النقية الظاهرة. فما تتغنى به النفوس، إذا ما هو إلا صدى لهواجس النيـل فى أعماقها، وما الحنين إليه وحبّه إلا ترجمان ذاتـى لـذلک التلاقـى البعيـد منـذ سـبحات المهد(التنى، ١٩٩٨: ١١١و ١١٢).

أوّل ما يلفت النظر فى قصيدته «ذكرى النيل» حنين الشاعر للنيل، وهو بلندن فيقول:

بلندن ما لى من أنـيسٍ ولا مـال ... وبالنيـل أمسَـى عـاذرِى وعُـذَّالى
ذكرتُ التقاءَ الأرزَقَـينِ كمـا دنـا ... أخو غَزَلٍ من خذرٍ عَـذرَاءَ مكسـال
ينَازِعُهـا كيمـا تَجُـودَ وَينْثَنـى ... وقَـد كَـادَ، مَحبُـوراً مُـؤانِسَ آمـال
إذا الأبـيضُ الرَّخَّـارُ هـاج عُبَابـه ... له زَجَلٌ من بـين جـال إلـى جـال
ترافقـه مـن فوقـه قَـزَعُ الطَّخـا ... فَتَحسـبُهُنَّ الطَّيـرَ تهفـو لأوشـال

(الطيب، ١٩٩٢: ٥٠)

إنّها صرخات مغترب حرقها النوى، يحن فيها للنِّيل وقد اسودت فى مقلتيه الحياة فى ديار الغربة من ألم البين والفراق يهتف ملء فيه، يأمل الإياب والرجوع لتلک الروابى وأولئک الرفاق وذلک الحبيب. فذكر النيل مرة أخرى فى مقطوعته «ماء النيل» فينشد:

يـا ليـت أنَّ النيـل عنـدى مـاؤه ... فأجعَلَـهُ وهنْـاً مـزاج مـدامى
هنـاک تَحَسَّـيتُ الصِّـبا وعقيبَـهُ ... وإن كان شاب الحَسوَ جَـرعُ سِـمَام
وآمُـل سُـؤرَ العَـيشِ ثُـمَّ وأنَّـهُ ... يحَـمَّ بِـهِ إمَّـا هلكـتُ حمـامى

(الطيب، ١٩٩٢: ٥٠)

فبلاده بعيدة المنال عن يديه، ويفصل بينهما أرض وماء فلا سبيل إلى الوصال، ولكنـه لا ينفک يحن إليها ويتحرق شوقا وحبا لرؤيتها ويتمنى أن يدنو ماء النيـل منـه ليرتشـف منـه رشفات، علها تهدئ من شدة وجده لدياره ووطنه فإن الأيام سوف تسـعد بعودتـه، وتهنـأ لـه الحياة عند النِّيل، بين حبيبه ورفاقه حينما تلامس الطمأنينة شغاف قلبه، ويحـس لحظتهـا براحة البال والضمير، فالنيل عند الشاعر أصبح محط سعادته وهنائه فهو جدير بأن يفـد، وأن تَكِنّ النفس له كل آيات المودة والاحترام.

يحن لبلاده ويتشوق شوقاً لماء النيل والنيل منه بعيد، وقد عظم وجده واشتد حبه لواديه، فأصبح لايلوى على شيء إلاّ رؤياه والرجوع إليه، فهو رجوع الذات إلى طينتها الأولى، التى تعلمت منها الحياة والسعادة فينشد:

شَوقَاً إلي النيل ذِى البَشَاشَةِ كَم ... سَعِدتُ فِى رِيفِه ومُدُنِه
وكَم تَحَسَيتُ مِن سُلافَتِه ... مكرم العَرضِ غَير مُمتَهنه
لولا المقاديرُ كانِ أحرَزنى ... ما لاينَال العُدَاةُ فى أمنِه
ولم أقَض الأيام مُدْجَنَةً ... فى بَلَدٍ قَد سَئِمتُ من دجنه

(الطيب، ١٩٩٢: ٢١٣)

فالنيل هو كنانة الصبابات والأشواق التى قد كتمها الشاعر المحب عن الناس وحجبها عنهم، إلا ما اعتراه من آهات وحزن، وتباريح الهوى، وتلك الشكوى التى يبثها فى الليل الدجوج للرجوج إلى الرحمن بأبيات شعر حرار، تعبيراً عن حرارة الأشواق واللواعج. فالنيل وحده هو الذى تجد النفس عنده العزاء والسلو.

ولَيسَ مَسِيرى فِى البِلادِ بِمُبعِدِى ... عَن النِّيلِ إنَّ النِّيلَ فِيه دِيارى
وفِيه الصَّبَاباتُ الّتى كَتَمْتُهَا ... عَنَ النَّاسِ إلا آهَتِى وجُوُارى
وشَكوَاى لِلرّحمَن فِى حَلَك الدُّجَى ... بأبياتِ شِعرِ يعتَلِجنَ حَرَار

(الطيب، لا تا، ٩٩)

فهو عزاء للنفس منذ ريعان نشأتها الأولى وقد أحبته منذ طفولتها الباكرة، فهو سلواها وملاذها إن تكالب عليها اليأس، وتنازعتها النوازع.

عَزَاء النَّفسِ أنتَ إذا تَغَشى ... رُبَا الأمَالِ يأسٌ كالضَّبَاب
حَبَيتُكَ إذ نَبَاتُ العُمرِ غَضٌّ ... ووَردُ الحُبِّ أحمر كالشِهاب

(نفس المصدر: ١٠٥)

كان النيل رمزا من رموز الشوق والحنين، إذ فيه الدار والمأوى والمنزل والمربع، وفيه ذكريات حبيبة إلى النفس ترجع صدى أيام سعد، تهيج الوجدان وتؤجج العواطف فتحن إلى تلك الديار وتلك الأيام الخوالي. ولما كان «أول رموز الشوق والحنين هو المأوى، والدار والمنزل أوضح ما يدل على المأوى، ثم المرأة فرع من هذا المعنى إذ هى كانت المأوى الأول حين كانت أما، ثم هى المأوى الثانى حين تكون الخدن والزوجة والخلة والصاحبة، والعرب

تكنى بالبيت عن المرأة»(الطيب، ١٩٩١، ج٣: ١٤١). فالنيل هو أيضا رمز من رموز الشوق والحنين ففيه المنزل والدار. فينشد فى مقطوعته «حَبّذا النيل»:

حبَّذا النيل مَنزلاً ونخيلُ ... النَّيلِ والليلُ مُقمرا والنُّجوم
ورِمالٌ كأنَّهُنَّ إضِى ... دارجٌ موهناً بِهنَّ النَّسيم
ورباعٌ يشَادُ فيهن بالذكـ ... ـر وتتلى يس أوحمُ
وقبورٌ ثَوينَ فى ذلک القَفـ ... ـر سقتهنَّ بالذِّهاب الغيوم
فَرَّق الدَّهر بينهُنَّ وعزَّى ... نَفسَه بعد عهدهنَّ اليتيم

(الطيب، ١٩٩٢: ٧٤)

إنّ الاغتراب عن الوطن، والبعد عن الأهل والديار وذوى القربى، وفراق الأحبة، يؤجج العواطف ويلهب الشعور المغتربة الذى طوَّحت به أيدى النوى، وهو يحس بالوحدة، وألم الفراق وعذابات البين، فلا يجد بدا من اللجوء إلى ذكرياته السالفة، يجد فيها الأنس والترويح ويلتمس عندها الطمأنينة والسلوى وهو يقاسى آلام الغربة وجراحاتها فيقول فى قصيدته، روض النيل:

أشاقَ قَلبَکَ رَوضُ النَّيل ترمقه ... ودُونَ ذلک آماد بعيدات
بَحرٌ خِضَمّ تضِلُّ السارياتُ به ... وَرَءَاهُ مصر والبيد التنوفات
أو تَركَبُ اللُّوحُ تمطو ذات أجنحة ... بک الفضاءَ لها بالجو أزَّات
ألا ترى الكَوْنَ قد أبدى مفاتِنَه ... وَرَفَّ الرَّوض آفاق نضيرات
ترى الرُّبا لاح إبريزُ الشعاع بها ... ودُونها وَهَداتٌ مدلهمات
والغانياتُ بأثوابٍ تزركشها ... تزينهنَّ شُفُوفٌ عبقريات
يخفِقن كالزَّهَر البَرى فى مَرَحٍ ... أو هُنَّ فى مَوجِهِ الزاهى فراشات

(الطيب، ١٩٩٢: ١٧٩)

فدون المغترب ووطنه بحار عراض تتيه فيها السفن، وصحارى شاسعات، فأنّى يتسنى له رؤية النيل ورياضة الغناء، وقد أرقه الحنين إلى الوطن والأهل .فذكرى الوطن والحنين إليه، قد ملكت من المغترب فؤاده واستحوذت على قلبه وجنانه، وهو يتمنى أن يرَ الوطن ويلثم ثراه، كناية عن شدة الشوق لوطنه الذى تفصل بينه وبين المغترب الفجاج والبحار. فيقول فى قصيدته حنين إلى النيل:

أيـا طـاب وِردُ النيـل إذ هـاج هـادِراً ... وجَـاشَ علـى الآفـاقِ بـاللُّجَجِ الحمـر
علـى شـاطِئيهِ النَّخـلُ والَّيـلُ شـاملٌ ... ومـن فَوقِـهِ الخضَـراءُ تُزهـر بالبـدر
يـــذكِّرُنى قُمريـــهُ مُتَرَنِّمـــاً ... بُلَيبـلُ روضٍ صـادحٌ غلـس الفَجـر
تَـرَنَّمَ حتـى رَنَّ فـى القلـب لَحْنُـهُ ... وحتى دموعُ الصب من طَـرَبٍ تجـرى
وخَيـل للعَينَـينِ سُـجَّعُ ضـالَةِ ... تَجَمَّعـنَ مـن وُرقٍ عليهـا ومـن كُـدر
وهيهـات منـى بـالجَرِيرَةِ نُـوَّح ... على الطَّلـحَ يمـلأنَ المسـامع بالشـعر
فيـا لَيـتَ أنَّ النيـلَ يـدنُو فمـاؤهُ ... أحَـبُّ إلينَـا مـن مُعَتَّقـةٍ بِكـر
ومـن كَاعِـبٍ حَسـناءَ لَـذٍّ حـديثُها ... تَفَـاوَحُ مـن أثوابهـا بَنَّـةُ العِطـر
فمـن مُبلِـغٌ قـومى السـلامَ تَحِيـةً ... فَقَلبِـى لا ينفَـكُّ مِـنهم علـى ذُكـر

(الطيب، ١٩٩٢: ١٧٧و ١٧٨)

فماء النيل أحب إلى نفسه، وأطيب من كـل اللذائـذ والمغريـات التـى وجـدها فـى ديـار المهجر، وذلک لأن شوقه لوادى النيل لايبلى وحبه باق فى الأعماق، وحنينه لقومه وعشيرته لايبدده الزمان، ولاينقصه الدهر فهو حب خالد، فالحنين إلى النيل والتشوق إليه، هو وفاء لـه وبر لما أسداه للأهل والعشيرة من نفع وعيش رغد، فالقلوب تكنّ لـه الـولاء والإخـلاص رغـم البعد والاغتراب. فأرض النيل هى الثرى والمربع الـذى شـهد الـذكريات الحالمـة وأحاديـث الشوق الفائتة والتى تولع النفس بترديدها وحكايتها لتجد فيها العزاء والسـلوى، ولتجـد فـى روايتها تنفيسا لهواجس النفوس ولوعتها.

فللشاعر عند ضفاف النيل ذكريات هوى، وصـبابات حـب قـد شـهدها النيـل فـى سـالف الزمان، أيام كان الشاعر يتدله فى حب لميس التى كانت تميد مهفهفة الأطراف بين دوحات النيل فهو يحن لتلک الأيام التى تعيش ذكراها فى النفس حية جياشة، وإن بعـد عـن النيـل وعن دياره، فإنّ الذكريات باقية فى النفوس التى لم تسعد بذلک الفراق للنيل والحبيب والقوم الكرام. الحنين إلى النيل وذكرياته العطرة هو حنين لذكريات الهوى والغرام والمحبين، ولولا عزم الشاعر على اجتياز المحن والتغلب على الصـعاب، وإيمانـه باسـداء الجميـل إلـى قومـه وعشيرته لهاجر من الديار بعدما ساد فيها الذل والهوان والخصومات ولكن تعلقه بكل ما ذكره شوقه وحنينه إليه يقعد به عن مفارقة الديار وهجر أرض النيل وهو الذى تشتاق إليه النفوس فيقول فى قصيدته غربة وذكرى:

شَوقًا إلى النِّيلِ ذِى البَشَاشَة كَـم سَـــعِدتُ فـــى رِيفـــه ومُدُنِـــه
وكَـــم تَحَسُـــيتُ مِـــن سُـــلافَتِه مكـــرم العَـــرشِ غَيـــر مُمتَهِنـــه

(الطيب، ١٩٩٢: ٢١٣)

فالشوق إلى النيل والحنين إليه، شوق إلى المكارم والعلى، وتطلع للشرف والرفعة، وأرضه هى مربع أحاديث الهيام والليالى الملاحة. فالنيل هو الذى شهد أقاصيص الهـوى، وأحاديـث الغرام وعناق المحبين وتمازج أرواحهم فى مودة وصفاء. فالنفس تحن إليه وتطـرب لـذكراه، فكم هى واجدة عند المسرة ومحبة الآخرين.

فالنيل هو أرض الجدود والأهل والقوم الكرام فأرض النيل، هى دار العشيرة ووطـن الآبـاء والقوم الطيبين والذين ضمّهم ترابه منذ أمد بعيد، قبل أيام الفونج، بل قبل أيام حروب العرب بذى قار فى أيام الجاهلية، فحمى النيل هو حمى شعب السودان، وفى قول شاعرنا دلالة على الرباط الوثيق بين النيل وشعبه، فهو استلهم من تاريخه النضـر كـل معـانى. الرفعـة والسـمو فيقول فى مقطوعته زنجية:

وجاريـــةٍ مـــا ثَوْبهـــا غَيـــرُ يـــارِقٍ وحَقو من الأغْصَانِ والـورقِ الخُضـر
لها لَونُ كُحلى الحريرِ وقَدْ طَفَـتْ من الآبَنُوسِ موجتَان علـى الصَّـدر
فَغُضَّ سَوَامَ الطَّـرفِ وأعْلَـمْ بأنَّهـا عليهـا ثيـابٌ مـن طبيعتهـا البِكـرِ
هى ابنةُ غابِ النيل كَوثرِكَ الذى سَقَى الحِقَبَ الماضِينَ تجربَة الدَّهر

(الطيب، ١٩٩٢: ٥١)

فهو تاريخ حى يجرى بين الناس، يستشف منه الماضى وعبره وتجاربه وهـو الـذى يضـم أرواح الجدود بين شطيه وهم ذوو عقيدة حنيفة، وسرائر طاهرة كريمـة، تشـربت كتـاب الله فكان حاديهم ودليلهم إلى العلياء، ورفض الظلم والاستعباد، فكان سبيلهم هـو سـبيل العـزة والسؤدد فما النيل إلاّ كتاب، نقرأ فى صفحاته ذلک الماضى الناصع، وننعم على شطيه وبـين جروفه بالأمن والغبطة.

فالنِّيل رمز الخلود والديمومة وهو سر الوجود والحيـاة بمـا يحملـه فـى جوفـه واسـتعمال الشـاعر لكلمـة "المـاء" لعلهـا اقتبـاس مـن قولـه تعـالى: ﴿وجَعَلنا مِن الماء كل شَىء حى﴾(الأنبياء/ ٣٠)؛ فالماء هو عصب الحياة وعمادها وسـر كنهها، فهـو الـذى يهـب الإنسـان

الوجود، ولكن الإنسان يفنى والنيل يبقى خالدا أبد الدهر. وما حياة الإنسان إلا كالسراب الذى يزول ويفنى والنيل باق فى خلوده وديمومته، فيقول:

ينساب ماؤك ويزخر عبابك
يا نِيلُ كَم تَنسَاب
ويزخَرُ العِبَاب
المَاءُ أنتَ إنَّنا سَرَاب

(الطيب، ١٩٩٢: ١١٢)

فالنيل هو كوثر الدنيا، بل هو الكوثر المجسد على الثرى بين شطآنه جنات ونعيم، وماؤه يسكر من فرط لذته، فالشاعر عندما يقف على شاطئ النيل، إنَما يقف أمام كوثر ذى سحر خلاب، يلهم المتأمل فيه المعانى المتدفقة، والبيان الرصين، وتسلب لذة مائه عقل كل من ذاقها فهى شهد الكوثر: فماؤه سلسبيل عذب، هو أصل الحياة، ما يفتأ يجود به النيل على أهله، وذويه، فتنقلب حياتهم نعيماً وعشياً كريماً:

أو كَوثَرُ النِّيلِ سَقَى ما سَقَى فَأصلَحَ الكَونَ بِما أصلَحا

(الطيب، ١٩٩٢: ١٢٩)

فالنِّيل حياة وعطاء ونماء وإصلاح. النيل المفدى، وهذه أيضاً من الصفات التى وصف بها النيل، وهى صفة الفداء ولا شك أن الذى يفدى لهو عزيز على النفس، يصعب عليها فراقه، ويهون عندها التضحية فى سبيله.

تَدَفَّقْ أيها النِّيلُ المُفَدّى وسَل بَين الأباطِحِ والهِضاب
عَزَاء النّفسِ أنت إذا تَغَشى رُبَى الآمال يأسٌ كالضَباب

(الطيب، ١٩٩٢: ٢٠١)

فهو عزيز مفدى عند النفوس التى تجد عنده الراحة والطمأنينة وهى التى تلوذ به إذا اهتاجها عارض همّ أو غمّ، تجد عنده العزاء ويبث فيها الأمل والرجاء.

نتيجة البحث

١.الشعر من أحسن أشكال التعبير الفنى فى تصوير الطبيعة (ظاهرها، سحرها، روعتها) *فعبدالله الطيب* يتخذ من محاسن الطبيعة مادة لخياله.

٢.تطور حب الشاعر من حُبّ مادى إلى حب روحى للنِّيل وأعجب به يصور جمال طبيعته ويتمتع بجماله وجلاله ومهابته.

٣.النيل عنده رمز من رموز الشوق والحنين وهو المأوى والدار والمنزل.

٤.الحنين إلى النيل والتشوق إليه هو وفاء له كما هو حنين إلى الحبيب واشتياق له وهـو شوق إلى المكارم والعلى.

٥.فالنيل عنده هو كوثر الدنيا وماؤه يسكر من فرط لذته كخمر فماؤه سلسبيل عذب، وهو أصل الحياة.

٦.يتغنى بالنيل الذى يربط بين القطرين(مصر والسودان) وينهل منه الشعبان.

٧.النيل عند *عبدالله الطيب* هو رمز للسودان ورمز للحرية واتخذه مثالا يحتذى فى وحدة الصف والتضامن عبر التاريخ والأيام.

المصادر والمراجع

القرآن الکریم.

ابن منظور، أبوالفضل جمال الدین محمد بن مکرم. لا تـا، **لسان العــرب**، القـاهرة: الـدار المصـریة للتـألیف والترجمة.

التنی، فتح الرحمن حسن. .۱۹۹۸م، **النیل فی الشعر السودانی**، الخرطوم: الدار السودانیة للکتب.

الزبیدی، أبوالفیض محمد بن المرتضی. . ۱۳۶۰ق، **تاج العروس من جواهر القــاموس**، القـاهرة: المطبعـة الخیریة.

الشامی، صلاح الدین.۱۹۹۷ م، **دراسات فی النیل**، القاهرة: مکتبة الأنجلو المصریة.

طالبی، محمد علی.۱۳۷۶ ش، **النیل فی شعر أبناء النیل**، مجلة زبان وأدب، العدد الثانی.

الطیب، عبدالله.۱۹۹۲ م، **أصداء النیل**، الطبعة الخامسة، الخرطوم: دار جامعة الخرطوم للنشر.

الطیب، عبدالله. ۱۹۹۱ م، **المرشد إلی فهم أشعار العرب وصــناعتها**، المجلـد الثالـث، الطبعـة الرابعـة، الخرطوم: دار جامعة الخرطوم للنشر.

الطیب، عبدالله. لا تا، **بانات رامة**، الخرطرم: الدار السودانیة.

قاسم، عون الشریف.۱۹۸۵ م، **قاموس اللهجة العامیة فی السودان**، القاهرة: المکتب المصری الحدیث.

المقالات

ممتحن، مهدی. ربیع ۱۳۸۹، «**المیاه ومفاهیمها بین القرآن والأدب الجاهلی**»، فصلیة دراسات الأدب المعاصر جامعة آزاد الإسلامیة فی جیرفت، العدد ۶، صص ۱۶۷- ۱۷۷.